الإطار البيئي و الجغرافي للإقتصاد التضامني و الإجتماعي (الجنوب الغربي الجزائري)

عبد العزيز راسمال : باحث مشارك
CREAD

مقدمة :

إن الجنوب الغربي الجزائري يزخر بتراث مادي و روحي ، و هذا الجنوب يحتاج إلى اهتمام من طرف الهيئات العلمية من باحثين اجتماعيين يقومون بدراسة هذا التراث الديني المكتوب و الشفاهي من النواحي الإقتصادية و التاريخية و الأنثربولوجية ، وأيضاً من الهيئات الرسمية كالوزارات و المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية ..

سأختار نموذجاً يرتبط باتحادية كبيرة كانت لها سيطرة واسعة على الجنوب الغربي الجزائري ، بل تمتد إلى الصحراء الكبرى من ليبيا إلى موريتانيا مروراً بالمغرب الأقصى ، وكلها تزخر بأبعاد اقتصادية و بيئية و روحية ليس هنا مجال تفصيلها .

يتعلق هذا النموذج بشجرة باسقة أصلها ثابت و فرعها في السماء ، وهي اتحادية السماحات (نسبة إلى الجد الأول سيدي بوسماحة ، الموجود ضريحه يتبو قرب تيميمون)

و التي رصدتها أحداث التاريخ ، و حوتها الطبيعة الجغرافية الصعبة المتنوعة من رمال صحراوية و سهوب شاسعة و جبال شامخة (الأطلس الصحراوي) .

إن المساحة الصحراوية و السهبية تشكل في الجزائر جزءاً كبيراً من ترابها ، فالسهوب في الجنوب الوهراني هي امتداد للسهول العليا ، و هي

تتميز بانخفاض معتبر لنسبة النباتات ، قليلة الأشجار ، كما أن هيمنة المجتمع البدوي و الرعوي أكثر تكيفاً قي هذه المناطق عنه في المجتمع الحضري .

لكن تسمية "جبال القصور" ، تعني تجذر هذه السلاسل في إطار حضري ، حيث أن أهل القصر هم مجموعات صغيرة قاطنة تتعايش مع نسق اقتصادي و اجتماعي أوسع بما فية النمط البدوي .

يتشكل سكان الجنوب الغربي من عناصر ثلاث : ***أولاد سيدي الشيخ ، العمور ، حميان ،***

وهم يهيمنون على أغلب هذا المجال المرتبط بالتفوق في المجال الاقتصادي و الاجتماعي – الثقافي ، فالبداوة لا تنحصر كما يعتقد البعض في حركات العشابة أو العزابة أو ما يتعلق برعي الماشية أو النشاطات التجارية ، لكنها في حد ذاتها رؤيا للعالم لها منطقها الخاص بها ، و رؤيا للمجال الإجتماعي و الإقتصادي – التضامني ، لذلك هناك مناطق للتبادل (المدن التي يقصدها الأشخاص للعشابة أو العزابة أو تبادل الصوف و السمن و منتجاتهما بالتمر أو بالخضر و الفواكه و السكر و الشاي ..) أو لشراء بعض المنتوجات الضرورية التي تتطلبها الحياة اليومية ..

هذه المدن (القصور) ، تمتلك مجالاً محدداً ، و التنقل من مكان لآخر لا يُعتبر إلا نقاط عبور ، فمرور البدوي بالقصر لا يُعتبر إلا حلقة من سلسلة طويلة في استعمال المجال ، فهو مرتحل دائم ، ومروره بالقصر

لا يكون إلا لغرض اقتصادي ، أو استراحة بين حركتين ، فالمدينة بالنسبة للبدوي هي محطة تجارية أو سوق للإنتاج الفلاحي فقط .

يشهد هذا المجتمع حراكاً دائماً ، فهو مجال يُعايشه البدوي بطريقته الخاصة ، و لديه تصوراً و تمثلاً ذهنياً خاصاً به ، فالمجال يُعتبر بالنسبة له مكان التقاء المصادر المادية مع التمثلات الرمزية .

يقول "فريرو" :" في المجال بين الطبيعة و الثقافة يعيش البشر حياتهم اليومية ، و فيه يظهر فشل أو نجاح مجتمع ما ، حيث تتجمع لديهم المعارف من الأصول البعيدة التي ينتمون إليها ، فالتمثلات الحالية هي انعكاس للصيرورة التاريخية الطويلة ، فالزمن هو المجال دون منازع " (Frerot 1993) .

إذا أخذنا ثلاث مدن تنتشر فيها المجموعات التالية : أولاد سيدي الشيخ ، العمور ، حميان ، و هي (البيض ، عين الصفراء ، المشرية) ، فإن وتيرة التحضر تضاعفت ، نظراً لانتشار مفهوم الإقليم و الحدود المجالية ، و للمدة الطويلة للجفاف – مع استثناء هاته السنوات الأخيرة – ، مما جعل السلطات تُشجع فكرة "القطانة" Sédentarisation

و ترغب في السير في الخط العام للتحضرمن خلال رسم الحدودالإقليمية(Chellig1990)

فحين نطرح " آفاق تطوير الاقتصاد التضامني " ، فإننا نضع مصير هاته المجموعات الإجتماعية بين الظاهر و المخفي ، حيث يأخذ الخيال أبعاداً قي مجال الجغرافية الإجتماعية و الروحية ..

يقول علماء الجغرافيا و المهتمون بالعلوم الإجتماعية :" إن مكان الميدان في سير عملية البحث هي التي تحدد موضع البحث " ..

لذلك سنقتصر على الأجداد المؤسسين لهاته العائلة (أولاد سيدي الشيخ و السماحات) لمعرفة المعالم الدينية التي ساهمت في هذا الاقتصاد التضامني .

لقد كان هذا البحث يتأسس على إشكالية تصنيف الاحتفالات المرتبطة بالاقتصاد التضامني ، و علاقتها بالمؤسسات الرسمية : و هي الركب و المعروف و الوعدة و الزردة و النشرة و الموسم ..

عرفت بالزاوية المركزية بسيدي الشيخ و دورها في الاقتصاد التضامني من خلال الأحباس (الأوقاف) و الأملاك من أراضي زراعية و مواشي و نذور و أملاك تصب في صندوق الضريح التابع للزاوية ، كما عرفت بزاوية السخونة بسعيدة التي جعلت من موسم الزيارة مناسبة "للقبض " و جمع النذور ، و تم التفصيل في الوعدات التابعة مثل وعدة سيدي أبو حفص الحاج بالبنود (ولاية البيض) ، و وعدة سيدي إبراهيم..

لكن التحليل الموسع كان حول معروف سيدي أحمد المجدوب بعسلة (ولاية النعامة) الذي يُقام في النصف الثاني من شهر أكتوبر من كل سنة .

كان لابد من تتبع الأثر التاريخي من خلال دراسة الأوقاف في العهد العثماني ، ثم دراسة تاريخية للزوايا أثناء الاحتلال الفرنسي من 1890 م – 1959 م ، من خلال الدراسة الميدانية – الوثائقية .

و نظراً لاتصال الشيخية بمسجد باريس منذ تأسيسه ، حاولت حصر أملاك وقف باريس ، باعتباره عقار خارجي ، تُضاف إليه" الغفارة " التي تُدفع لزاوية أولاد سيدي الشيخ ، و الأملاك المنقولة التابعة لها و "القبض" الذي هو أهم مورد للزاوية.

و اتصالاً بالميدان دائماً قمت بجمع المعلومات الوصفية لثلاث فضاءات مجالية تنتمي إلى الوحدة النسبية الواحدة (السماحات) ، و هي مدن الأبيض سيدي الشيخ و عسلة و مغرار ، و التي لها فضاء مجالي و روحي يمتد على رقعة جغرافية واسعة..

أما الحواضر الجزائرية ، فقد تعرضنا لها من خلال زواياها و شيوخها لنعرف مدى تأثيرها على المجتمعات المحلية وهيمنتها الروحية ، حتى أن هذا الاقتصاد التضامني نفسه يرتبط بها .. مثال ذلك : قصر " عين ماضي " – الأغواط– الذي أدى دوراً مهماً في نشر الطريقة التجانية التي لها 350 مليون مريد ، و 500 مليون إذا أُضيف لهم الأتباع و لنتصور لو أن كل هؤلاء الأتباع يُقدمون الولاء للخليفة العام ، و يُقدمون الهبات و الهدايا و القبض فإن المصير المادي للزاوية سيتحول جذرياً ، و تُصبح قطباً اقتصادياً -اجتماعياً و روحياً لا يُستهان به..

بعد ذلك عُدت إلى رصد بعض النماذج من الآباء المؤسسين للسماحات ، الذين بفضل إمكانياتهم المادية المعتبرة التي ترجع إلى البركة الإلهية ، اشتروا عيوناً أصبحت مدناً كاملة (مثل : مدينة المشرية الحالية ، التي ترجع في تسميتها إلى مشتريها : سيدي سليمان بن أبي سماحة) ، وكيف خصصوا أوقافاً للحرمين الشريفين و بيت المقدس...

الأولى ، بحثت فيها علاقة الطريقة الصوفية بالتجمع التضامني من وعدة و ركب و موسم و تدخل السلطة الرسمية و المحلية في هذه التجمعات ، لتبيان العلاقة العضوية بين الاقتصادي – الاجتماعي و السياسي ..

الثانية ، اقتصرت على البحث في رؤيا الفاعلين الاجتماعيين حول تمويل الزوايا من طرف الهيئات الرسمية على رأسها وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف ، و قد حددت بعض المتغيرات البسيطة لتوضيح هاته الرؤيا..

الآباء المؤسسون :

سيدي أبو سماحة : كان صاحب مال وفير أوقفه على الحرمين الشريفين وقدمه هبة للحرم المقدسي و المكي ... هنالك من يذكر بأنه اقتسم ماله بين الزاوية و الحرم في المدينة و بين السماحات و الأشراف .

في سنة 1988 م تقدم المقدم مبارك و آخرون ، قاموا ببناء الضريح الخاص بسيدي أبي سماحة في تبو قرب "شروين " ، معهم الحاج محمود ، و جماعة من أولاد سيدي أحمد المجدوب ، تم جلب شاحناتِ Camions.. و 601 شاة ، شارك في الزيارة وزير الشؤون الدينية آنذاك و والي آدرار ومن ثم أصبحت الزيارة كل عام..

سيدي سليمان بن أبي سماحة : المعروف عنه بأنه قام بشراء المشرية و عين بوداود (سيدي سليمان) ، و في وثيقة عند أحد أبناء سيدي أحمد المجدوب تثبت أنه اشتراها من سلطان كان يفرض الجزية على

حميان ، و الشهود في الوثيقة هم : جد سيدي عطاالله (تاجموت) سيدي علي بن يحيى ، سيدي الحاج بن عامر..

عرش " حميان " هم خدم لسيدي سليمان بن أبي سماحة : نذكر من ذلك تقديم الهدايا من الأموال و الأركاب و الهبات و المأثور هو دعاء الشيخ لهم : " أسكنكم الله هاته السهول و أكسبكم هاته الخيول ".. لحد الآن ما زالوا أغنياء و يكسبون الخيول و الماشية..

توجد عين ماء بقرية تدعى " تيسمولين " و يسكنها عرش " أولاد سرور " بين المشرية و البيض ، و هذه العين يؤثر أن سيدي سليمان بن ابي سماحة اشتراها ، و وهبها في سبيل الله ..

سيدي أحمد المجدوب : تاريخ الإحتفاء به معلوم ، الأيام الأولى من أكتوبر الفلاحي .. بدأت الوعدة (المعروف) في 1904 م ..أثناء الزيارة ، تقدم مبالغ مالية طائلة من الأفراد ، تصل إلى 10 آلاف دينار/ للشخص ، أو 20 ألف دينار تقدم لزاويته و ضريحه على شكل هبات.. بالإضافة إلى ما يُقدم من ماشية تذبح أثناء الوعدة " صدقة" عليه ، حيث يدفع كل رب عائلة " خروفاً أو نعجة " نذراً عليه للولي الصالح .

لالا صفية : زيارة ضريحها موسمي ، أما زيارة سيدي يحيى ابنها فهي أكثر شهرة و تُقام له وعدة " معروف " في سيدي الجيلالي – سبدو – ولاية تلمسان.

سيدي الشيخ :

للتفصيل أكثر في قضايا الهبات و القبض ، فإن أبو القاسم سعدالله يستعرض ما يسمى عند أولاد سيدي الشيخ بالغفارة ، و هو تقليد قلما نجده في طرق صوفية أخرى ، و هو تقديم حيوانات و بضائع و نحوها يعينها الشيخ سنوياً ، و هي في الواقع ضرائب دنيوية اتخذت صفة دينية ، و مثالها : نعجة على كل خيمة أو ناقة ، و كيس من القمح أو التمر ، حسب ما يفرضه الشيخ على كل تابع ، و من التقارير الفرنسية يستخلص ما يلي-:

*ربع الحوارات (أبناء الناقة) المولودة في نفس العام ، مفروضة على بعض القبائل..

2000 *شاة على قبائل أخرى ، و 12 برنوساً ، وغير ذلك من البضائع ، إضافة إلى 1.500 * فرنك مفروضة على شعانبة البرازنة..

تقسم هذه الغفارة على الفروع كما يلي :

103* من الشاة إلى الدين و قدور بن حمزة ..

100 *شاة مع منسوجات قطنية و سكر و قهوة و غيرها من المواد الغذائية إلى أولاد الحاج الدين ..

و يذهب البعض ، إلى أن هذه المداخيل من الغفارة ، و من الزيارة ، هي التي أدت إلى استقلال فروع الطريقة الشيخية و الانقسامات العائلية بهدف جمع المال و البضائع من الأتباع ، كل على طريقته الخاصة ..*

أما السلطات الفرنسية فلها موقف من هذه الغفارات أو الزيارات ، كانت تملك وسيلة الضغط ، فمن ترضى عنه تتغاضى عنه ، و ربما تُشجعه

على جمع المداخيل من الزيارات و الغفارة ، و من تسخط عليه فإنها تمنعها عنه ، فيصيبه الفقر ، فما عليه إلا الاستسلام أو الانقراض..**

أحفاد سيدي الشيخ :

سيدي الجيلالي بن سيدي محمد بن سيدي الحاج بحوص يُقال كان في طريقه متوجهاً إلى الأبيض ، صلى في مكان يبعد عن عين صالح بأربعين (40) كلم ، وقال لهم :" هذا هو المكان الذي تُؤسسوا فيه بلدتكم" اشترى عليهم ابن سيدي الحاج بوحوص البئر و أخذ في حفر فقارته ، لما انتهى سيدي بوحوص المجدوب من إنشاء هاته الفقارة ، جاء أخوه سيدي الحاج محمد وقال له :" لنتشارك في هذه الفقارة "، أجابه بالإيجاب.

ما هو شائع هو الذي اشترى عليه فقارة الزوى و أصبحا مشتركين فيها ، وهما الذين أسساها ، و لحد الساعة فإن فقارة الزوى بلدية تبعد 40 كلم عن عين صالح ، و فيها قبيلتان : الزوى (أولاد سيدي الشيخ) الذين أتوا مع سيدي الحاج محمد ، والآخرين يُسمون (الحراطين)..

4- الزوايا الشيخية :

كان لسيدي الشيخ ثلاث زوايا رئيسية ، إثنتان في الناحية الشرقية (الشراقة) ، و واحدة في الناحية الغربية (الغرابة) ؛ و قد سميت الزاوية الأولى الزاوية الأم ، أو الزاوية المركزية (زاوية الأبيض سيدي الشيخ) ، و الثانية زاوية سيدي الحاج بوحفص ، و الثالثة زاوية سيدي الحاج عبدالحاكم ..

لكل زاوية من يُديرها أو يُسيرها ، وهم يجمعون حقوق الزيارة ، ومن لم يدفع ليس له

***ديبون ، كوبولاني ، ص ص : 244-245 – رين ، ص ص: 362- 368 .**

****أبو القاسم سعدالله : تاريخ الجزائر الثقافي – م : 1-2 ص109-110.**

حق في زيارة الضريح ، أو أن زيارته غير مقبولة ..و لا شك أن الثورات العديدة قد أثرت على المداخيل و على الرؤساء أيضاً ، فبعد قصف قبة سيدي الشيخ من طرف نقريي Negrier في 1881 م ، حُمل جثمان سيدي الشيخ إلى البيض ثم أعيد بعد اتفاق 1883 م ، إلى نفس المكان و شُيدت عليه القبة ..

أما عدد الأتباع فهو بالنسبة للطرق الأخرى كثير ، لأن أتباع الشيخية ليسوا رعايا دينيين و إنما رعايا سياسيين أيضاً ، و قد عرفنا أن سلطة أولاد سيدي الشيخ في الأربعينات و الخمسينات من القرن التاسع عشر ، كانت تمتد إلى المنيعة و ورقلة ، و لكن منذ الستينات أصابهم ما أصاب كل القيادات الجزائرية من تقليص و تحجيم و تقسيم لا داعي لذكر الإحصائيات لسنة 1882 م ، 1897 م ، عن عدد الأتباع و المقاديم و الإخوان ، فما هو جدير بالأهمية هو أن التدهور كان بادياً على الطريقة الشيخية ، باشتغال الزعماء بالدنيا و المناصب و إهمال زاويتهم ، فاتفاقية 1883 م بين زعماء أولاد سيدي الشيخ و السلطات الفرنسية ، على إثر ثورة بوعمامة ، قسمهم إلى شراقة

و غرابة ، الفرع الشرقي بقيادة أولاد حمزة ، الثائر عدة مرات منذ 1864م و الفرع الثاني بقيادة بوعمامة ، و هذا أدى إلى تحطيم الطريقة و الإتحادية لما كان لهما من قوة و سلطان ..

ولكن الاتفاقية الأخطر في 1892 م ، هي أثناء زيارة زعيم الطيبية للجنوب الغربي لتفقد الزوايا التابعة له حيث كان جول كامبون Jules Combonيلتقي بقدور بن حمزة في المنيعة الذي كان ثائراً و غاضباً و لاجئاً لبضع سنوات ، فسلم حصانه إلى كامبون رمزاً للطاعة ، وتقليد الآباء و الأجداد في تحية العلم الفرنسي ؛ فبعد أن كان عاقاً لها و ناقماً عليها ، أظهر الولاء الطاعة .. و قد امتدح " ماسكري " Masqueray، أستاذ المدرسة العليا طريقة كامبون في التعامل مع الأهالي ، إذ خرج من قصر مصطفى باشا ليفتح المنيعة التي ظلت أبوابها مغلقة أمام الاحتلال ، بواسطة أبنائها أتباع الشيخية و الطيبية ، حدث هذا في الوقت الذي ما يزال فيه بوعمامة لم يستسلم لفرنسا..

الخلاصة ، أن هذه الطريقة اختلط أمرها على الباحثين ، فهل هي دين أم دولة ؟ و اختلط أمرها على أتباعها ، هل تُجبى منهم الغرامات أو تُفرض عليهم الغفارة أو تُطلب منهم الصدقات للفقراء و المساكين ؟ ثم كيف يكون الرجل خليفة في أولاد سيدي الشيخ، وفي الحكومة الفرنسية ، و باسم الطريقة في نفس الوقت ؟

على الأقل قبل مشاركة الطرق الصوفية لها ، و التي لقيت نفس المصير..*

الطريقة الشيخية : مؤسسها هو سيدي الشيخ ، و هو عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماحة بن أبي ليلى بن بلحيا بن عيسى بن معمر (المدعو معمر بالعالية) بن سليمان بن سعد بن عقيل بن الحفيظ (المدعو حرمة الله) بن عسكر بن زيد بن أحمد بن عيسى بن الثُّدَي بن محمد بن عيسى بن يزيد بن الطفيل بن ماضي بن الزغاوي (أو زغوان) بن صفوان بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق – صاحب النبي ص-

هذه السلسلة النسبية تثبت أنهم ينتسبون إلى أبي بكر الصديق ، حسب الشائع عنهم ويذهب أحد الكتاب الفرنسيين الذي تعرف عليهم مبكراً (1859 م) ، أنهم يرجعون إلى الأشراف من نسل فاطمة الزهراء و الإمام علي ..**

ولكن يبدو أن الأمر قد التبس عليه في هذا الخلط بينهم و بين أصهارهم و المحيطين بهم من الأشراف كما سنوضح فيما بعد ..

و قد استمدت الشيخية أصولها اللدنية من الصديقية ، نسبة إلى أبي بكر الصديق ، و كما يُعرف لدى مريدي هذه الطريقة فإن سلمان الفارسي كان أول تلاميذه ، و قد أخذ الطريقة عنه حفيد أبي بكر أبو القاسم بن محمد بن أبي بكر ، و من بعده ظهر تلامذته الذين أخذوا بأقواله و تمثلوا بورعه و شكلوا مذهباً أصبح قاعدة يأخذ بها كل مريد.

انتشار الصديقية كمذهب صاحبه توسع في المجال الجغرافي في المشرق و في مصر و اليمن ، وليس لهاته الطريقة من الأتباع المباشرين إلا القليل .

إلا أن سلسلة التصوف التي اتخذها المؤسس شيخ الطريقة سيدي عبدالقادر بن محمد تعود إلى الرسول صلى الله عليه و سلم ،كما سنبين ذلك فيما بعد ..

يضيف أبو القاسم سعدالله ، أنها ترجع إلى عدة طرق صوفية : – القادرية – الشاذلية – الصديقية – البكرية ..أما الطيبية التي يذكرها خطأ ، فقد تأسست بعد وفاة سيدي الشيخ

*** أبو القاسم سعدالله : تاريخ الجزائر الثقافي – م : 1–2 ص 112 – 110 .**

****دوفرييه : إكتشاف الصحراء .. باريس 1864 م ، ص :315..**

كان مؤسسها قادري الطريقة ، إلا أنه أصبح مقدماً للشاذلية من خلال شيخه سيدي محمد بن عبد الرحمن السهلي الذي أخذ عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني ، إلى آخر السلسلة المعروفة بسلسلة البركة . *

يظهر أن عائلة سيدي الشيخ ، كانت وارثة لمجد ديني و نسبي ، جلب إليها مكانة مرموقة و زادها وضعها الجغرافي المفتوح على الطرق الصحراوية جنوباً و التلية شمالاً أهمية خاصة ، فاستغنت بالدين و التصوف ، وتحكمت في السياسة و الجاه ، لذلك اختلط أمرها على كثير من الدارسين ، فرين Rinn يعتقد أن الطريقة الشيخية ليست جماعة دينية و لا طريقة صوفية و لا جمعية خيرية بالمعنى الحقيقي للكلمة ، إنها خليط من تأثيرات متعددة

ذات صفات مرابطية تُصنع بأيدي أناس كثيراً ما يكونوا منقسمين ، لكن لهم أصل واحد ، و يضعون سلطتهم الدينية في شكل مزدوج ، و لا شك أن ذلك كان عندما سلك معهم الفرنسيون سياسة " فرق تسُد .

فمنهم من يدرس الطريقة الشيخية على أنها طريقة دينية ، فإذا به يكتشف أنها إقطاعية اقتصادية و سياسية و اتحادية كبرى من الأعراش و القبائل و النفوذ السياسي ..و منهم من يدرسها على أنها "إمارة" ، و سلطة حاكمة فإذا به يجد نفسه أمام قوة روحية و شخصيات من طراز المرابطين الأولين ..**

تأسيس الزاوية و الصراع على الأملاك :

يُذكر من بين أساتذته ، شيخه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن السهلي نسبة لبلادالسهلي

بالمغرب ، القطب و الشريف النسيب ، المتوفى سنة 990 هـ ،1582 م الذي اتسمت به زاويته السهلي الكائنة قرب بوذنيب شرق الراشدية (المغرب) ، و قد دعا سيدي الشيخ إلى المكوث في الصحراء الجزائرية – المغربية لاستكمال تكوينه ،و تأسيس الطريقة، إلا أن خلافاً حصل بين أبناء الشيخ محمد بن عبد الرحمن و سيدي الشيخ حول العطايا التي كان يمنحها المنتسبون للطريقة ، مما أدى إلى انتقال الزاوية إلى الجزائر الحالية ، و ليس بعيدا عن الأبيض يوجد" الرجم" المكان الذي ودَّع الأستاذ فيه التلميذ المخلص و الوفي.

و كان من حقه على تلاميذه دفع مرتب سنوي و خادمة سوداء و زريبة وناقة بيضاء

***أبو القاسم سعدالله : تاريخ الجزائر الثقافي – م : 1-2 ص : 103-104..**

**** أبو القاسم سعدالله : تاريخ الجزائر الثقافي – م 1-2 : ص : 105 ..**

ما كان سيدي الشيخ يكن له وفاءً و إجلالاً عظيمين ، في حين أن الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن السهلي كان ذو طباع صعبة ، و لا يتحمله إلا المخلص له ، و في رحلة العياشي نجد أنه تلميذ الفيلالي علي بن عبدالله ، الذي كان بدوره تلميذاً لسيدي أحمد بن يوسف الملياني ..

دراسته في السهلي انتهت ، فغادر شيخه في تاريخ غير محدد لكي يرجع إلى بلده ، ويتابع دعوته الصوفية ، أخذ الإذن من شيخه ، و غادر السهلي ، و ذهب إلى الجنوب الغربي الجزائري ، استقر أولاً في مغرار التحتاني غير بعيد عن عين الصفراء ، فوجد المكان

معزولاً ، فأعرض عن إنشاء الزاوية ، و اتجه إلى حميان بالمشرية أولاً ثم عين ماضي ، ثم تاسلا ، ثم توات ، و أخيراً فجيج ، قرب الزاوية التي احتضنت جده سيدي سليمان بن أبي سماحة ، و هي التي كانت تتمتع بالازدهار الاقتصادي ، و كانت فضاءً روحياً ، ومركزاً للتعليم الديني المعتدل ، لكن عداوة الفقهاء له ، حطمت أمله و غادرها قائلاً : " إذا أراد أي ولي أن يمتحن صبره على الأذى فليعش مع أهل فجيج " (اللي قال أنا ولي يعاشر أهل فجيج).

غادر فجيج عابراً وادي الناموس ، مروراً بملك سليمان ، و هي قرية وثنية ، فهدمها و استقر أخيراً في الحاسي الأبيض الذي أصبح يُدعى منذ ذلك الحين بالأبيض ، أنشأ زاويته التي لم تلبث أن غطت مساحة واسعة بفضل المقاديم الذين كونهم لدرجة أنه بعث بمقدمه إلى الجزائر العاصمة ، و هذه المعلومات موجودة في المناقب ..في المناقب و العرف الشفوي يذكر 110 خلوة في الوادي الغربي ، و وادي الناموس ، و عبر الناحية الوسطى لجبال الأطلس الصحراوي – كسال و بونقطة و عنتر– ، و في الكهوف وقرب المقابر المهجورة في الدهاليز ..

في البحث الذي قدم في أطروحة الدكتوراة المذكورة سابقاً ، يُلاحظ أن الطريقة الشيخية تُهيمن على الطرق الصوفية الأخرى ، فالمريدون يشكلون 28.57 % ، بينما الأتباع يشكلون 36.13 % و بجمعهما يتبين أن ما يفوق 64 % يُشكله جمهور الشيخية من أتباع و مريدين ، و هذا يدل على عراقة هذه الطريقة – كما لاحظنا سابقاً– بالنسبة للطرق الصوفية الأخرى ، بالإضافة إلى ترابط الجسم الإجتماعي و تناسقه من الناحية الروحية بشكل لا نظير له في بعض الطرق الصوفية التي نعرفها .. بينما الذين ليست لديهم أي طريقة تبلغ نسبتهم من مجموع العينة 29.66 % ، رغم وجود عدد من المستقلين و الأتباع ضمن هذه الفئة و هذا منطقي باعتبار هؤلاء في بداية التعرف على الطرق الصوفية ، و باعتبارهم من المحبين لا غير ..لذلك فكلهم

يخضعون للممارسات الإقتصادية – التضامنية في الركب و الوعدة و غيرها ..

فيما يتعلق بالعلاقة بين العرش و تدخل السلطة في الوعدة أو الركب أو الموسم ، يُلاحظ من خلال الاستقراء الأولي للنسب المئوية ، أن أولاد سيدي الشيخ يُقرون بتدخل السلطة في ركب سيدي الشيخ بنسبة 70.70% و هذا الأمر يُعزى إلى تاريخ هذا العرش و نخبه السياسية ، فهؤلاء قد شكلوا نخبة و قيادة سياسية مستقلة ظهر تأثيرها أثناء الاحتلال ، ففي عهد الأمير عبدالقادر اعتذروا له بأنهم لا يقبلون إلا قائداً منهم ، هذه الذهنية ترسخ هذا التقليد السياسي ، و لا داعي في هذا السياق البرهنة على ذلك بأمثلة تاريخية لأن المراجع تزخر بذلك ، من ذلك كتاب المملكة العربية Le royaume arabe لآني راي غولدزيقر A.R.Goldziguer، و غيره من المراجع و المصادر ، فهم يطمحون للسلطة و يُحاولون افتكاكها بكل الطرق الممكنة ، و حتى تنظيم ركب سيدي الشيخ فإنه يخضع لتدخل السلطة الزمنية (الرسمية) التي لا يُمكن تجاوزها ، بل ينبغي إشراكها..

و بصفة أقل أثراً ، نُلاحظ أن أولاد سيدي أحمد المجدوب يقرون أيضاً بتدخل السلطة بنسبة 63.93 % في وعدة سيدي أحمد المجدوب ، و لكن يرجع ذلك إلى عوامل أخرى غير تلك التي نعرفها عن الركب لدى أولاد سيدي الشيخ ..من هذا ، نذكر بالمرسوم الذي رسم الوعدة كاحتفال ديني من جهة و وطني من جهة أخرى ، و لرغبة السلطات المحلية للمدينة في زيارة المسؤولين من أعلى مستوى ، الوالي

و الوزراء ، للإحتفاء و التشريف ..فقد تمت الزيارة من طرف وزير الشؤون الدينية و الأوقاف و وزير الصحة ووزراء السياحة الذين تعاقبوا على هاته الوزارة ..الخ ، بل إن الوفد الأوروبي جاء مصحوباً بوفد عربي و بوفد إفريقي لزيارة المنطقة و المشاركة الرسمية في الاحتفال ..هذه الأبعاد جعلت تدخل السلطة ضروري ، و لو أن التنظيم الداخلي و الأمني يقوم به شباب أولاد سيدي أحمد المجدوب..

أما أولاد سيدي التاج ، فلا تُقر إلا نسبة قليلة منهم بتدخل السلطة 28.28 % و هذا يعكس حقيقة موسم سيدي بوعمامة الذي لا مجال فيه للتدخل السياسي أو التأطير لهذا الموسم ، حيث أن أبناء سيدي التاج الموجودين في مغرار و عين الصفراء و تيوت يلتقون في الموسم ..من خلال الذكر و إنشاد "الياقوت" القصيدة الصوفية المعروفة لسيدي الشيخ ، و المدائح الدينية و الحضرة ، و يكتفون بتجمعات موسمية فقط ذُكرت أثناء مقابلة بعض المشايخ و المقاديم. .. وفيها تحدث بعض العطايا ، مثل : "حق سيدي الشيخ " ، حيث يتجمع أبناء سيدي التاج حول " الصدقة " المخصصة لسيدي الشيخ ويتم البيع بالمزايدة لمن يدفع أكثر ..

إن المعطيات اللاحقة تبين الصلة الوثيقة بين الطريقتين الشيخية و القادرية كفضاء روحي فالذين يُعلنون بأن لهم صلة بالطريقة الشيخية تبلغ نسبتهم 25.23 % من مجموع الطرق الصوفية ، تلي ذلك الصلة بالقادرية بنسبة 20.47 % من مجموع الطرق الصوفية..

إذا أخذنا كمتغير تدخل السلطة في إقامة الوعدة أو الركب أو الموسم ،

فإن الفئة التي تُقر بذلك هي فئة الشباب بما يُعادل 43.37 % بالنسبة للفئة العمرية (20–29 سنة) ومن الناحية السياسية ترى أن هذا التدخل في المجال الروحي هو محاولة السلطة السياسية الإستيلاء على هذا الفضاء الروحي ، و إذا أخذنا الفئة العمرية (20– 29 سنة) فإن نسبة من يصرح بتدخل السلطة في الاحتفالات الدينية هو أكثر ممن ينفي أو يقصي هذا التدخل حيث بلغت هذه النسبة 69.90 % ، وهي نسبة معتبرة تؤكد ما ذكر سابقاً.

يُلاحظ أن العلاقة بين تدخل السلطة في الوعدة أو الركب أو الموسم ، و بين التقييم الإيجابي لثقافة الزوايا ، والطرق الصوفية يُشكل ما نسبته 46.98 % ، و أغلبهم يرون أن تدخل السلطة واقع ونربط ذلك بالتقييم الإيجابي 64.46% ، بينما الذين لا يُصرحون بتدخل السلطة أو الذين ينفون هذا التدخل تبلغ نسبتهم 19.66% من مجموع العينة ..أما من يعتقدون بتدخل السلطة ، و لكنهم لا يتخذون أي موقف من التقييم (موقف حيادي) فتبلغ نسبتهم 16.26%.

كما يصرح من ينتمي إلى الطريقة الشيخية بتدخل السلطة 42.01 % من مجموع المريدين للطريقة الشيخية ، بينما يُصرح 28.57 % من مريدي الطريقة الشيخية بعدم تدخل السلطة ، و بعضهم يعتقد أن التدخل نادر بالنسبة للسلطة 26.05 % ، و حين نجمع النسبتين فإن 68.06 % يُصرحون بتدخل السلطة بشكل أو بآخر ؛ و لكن الجدير بالملاحظة أن الذين لا ينتمون لأي طريقة هم مجموعة معتبرة تُشكل59.53 % من

مجموع العينة الجزئية (اللامنتمين) يُصرحون بأن هنالك تدخل للسلطة .

لقد ذكرنا فيما سبق دور السلطات الرسمية في إحياء هذه المواسم و الزيارات و لكن يمكن إضافة أن هذه الزيارات التشريفية هي في حقيقة الأمر محاولة لافتكاك الشرعية الدينية و السياسية أثناء هذه الزيارات ، كانت آخرها التحضير للإنتخابات البلدية التي تمت في عسلة بالنسبة لعرش أولاد سيدي أحمد المجدوب مثلاً ، حيث استغلت الأحزاب السياسية هذه المناسبة للدعاية ، و كان حزب التجمع الوطني الديمقراطي أكثر تجنيداً لجمهوره و استغل هذه المناسبة لدعايته الإنتخابية ، تُوجت بفوزه بالمقاعد ، و بالأغلبية (5 مقاعد) و (2 مقعدين) لحزب جبهة التحرير الوطني ..

..و نفس الأمر بالنسبة للسلطات الولائية التي تسعى لاستغلال الوعدة و الركب (الموسم بدرجة أقل) من الناحية الرمزية لإضفاء السلطة الروحية على السلطة الزمنية و احتكار ذلك سياسيا.

بخصوص زيارة العائلة في الموسم و الإقرار بتدخل السلطة، نجد أن العلاقة الترابطية بلغت 30.63% ، أما الذين يُقرون بالتدخل النادر للسلطة فيبلغ 27.02 % ، و بالجمع بينها يحصل أن 57.65 % من الذين يزورون بعائلاتهم الموسم ، يصرحون بتدخل السلطة بشكل أو بآخر ..أما الذين يعلنون عدم مشاركتهم في الموسم فهو عدد معتبر بالنسبة للعينة إذ يبلغ 49.33 % من مجموع العينة ..

حينما نريد التطرق إلى الطرق الصوفية الأكثر انتشاراً في اعتقاد المبحوثين ، نرى أنهم أقل تحيزاً لطريقتهم الشيخية ، التي يعرفون أنها منتشرة في فرنسا – عن طريق مسجد باريس – الذي يتولاه أحد أحفاد سيدي الشيخ (دليل بوبكر) و كندا و بلجيكا و الولايات المتحدة الأمريكية ..حيث يُقرون بأن التجانية هي الأكثر انتشاراً في العالم و هذا ما يتوافق مع النظرة الموضوعية لأتباع التجانية في العالم الذين يتجاوز عددهم 350 مليون مريد في العالم حسب بعض الإحصائيات..فهم يعتقدون أن التجانية أكثر انتشاراً خاصة ذوي الأصول الحضرية(أهل المدينة) بنسبة62.58% من مجموع سكان المدينة ، بينما تبلغ النسبة 45.08 % من سكان القرية (أهل الريف) الذين يعتقدون نفس الاعتقاد بانتشار التجانية في العالم . غير أن هنالك نسبة – ولو أنها غير معتبرة 21.08 % من أصول حضرية (المدينة) تعتقد أن الشيخية هي الأكثر انتشاراً في العالم ، و قد تُعبر هذه الفئة عن العصبية التي قد تختلف عن النظرة الموضوعية و الواقعية التي يعرفها أهل الزوايافي الجزائر و العالم العربي -الإسلامي .

ربطاً بالجدول السابق ، فإننا نلاحظ تلازماً في الارتباط بين التجانية كطريقة منتشرة عالمياً ، و الشيخية كطريقة محلية و منتشرة في بعض الدول الأوروبية بنسبة 22.01 % ..غير أن هناك من يُصرح بعدم وجود هذه العلاقة بنسبة 17.61 % ، و إن كانت هذه النسبة أقل فإنها توحي من جهة أخرى بعدم وجود الربط بين الطرق الصوفية على الأقل في تصور المبحوثين ، و عدم الاهتمام باستراتيجية موحدة للطرق

الصوفية المتواجدة في الجزائر.. لقد حظي صاحب الطريقة الشيخية و قطبها سيدي عبدالقادر بن محمد بالأولوية في الزيارة ، في المرتبة الأولى بنسبة تُقارب 33.66 % ، أغلبية زواره من أولاد سيدي الشيخ 73.26 % ، و كذلك 24.75% من أولاد سيدي التاج ، بعده مباشرة زيارة سيدي أحمد المجدوب في المرتبة الأولى بنسبة 16.33 % منهم 77.55% من أولاد سيدي أحمد المجدوب . هذه الزيارات المتواترة لا تخلو أبداً من بعض المساهمات التضامنية و الاقتصادية (الزيارة و النذر و الصدقة ...الخ) ..فإذا أخذنا بالمرتبة الأولى ، يُلاحظ أن الزيارة الخاصة بأولياء السماحات المرموقين تأخذ النسب التالية : –

*عرش أولاد سيدي أحمد المجدوب :تبلغ نسبة الزيارة 63.93 % من مجموع العرش . * عرش أولاد سيدي الشيخ : تبلغ نسبة الزيارة 77.77 % من مجموع العرش...

* عرش أولاد سيدي التاج : تبلغ نسبة الزيارة 41.41 % من مجموع العرش....

– المشاركة في الركب حظيت بنسبة معتبرة من المجموع الكلي 68.71 % ..وكما عرفنا سابقاً فإن زيارة سيدي الشيخ قد حظيت بالمرتبة الأولى ، من هؤلاء الزوار 48.04 % يشاركون في الركب ، تليه زيارة سيدي أحمد المجدوب بنسبة 15.08 % ممن يُشاركون في الركب ..

إن المشاركة في موسم سيدي بوعمامة تستلزم المشاركة في الركب وهو أولى ، و هذا المتغير يتضح بمتغير آخر وهو معرفة شرائح أولاد سيدي التاج ،..و إذا غيرنا طريقة قراءة النسب ، فإنه من بين الذين يعرفو ن أولاد سيدي التاج و يشاركون في الركب ، تبلغ نسبتهم 65.30 % و هي مرتفعة نسبياً ..و السألة المفاجئة هو أن هنالك من لا يعرفون شرائح أولاد سيدي التاج و يشاركون في الركب بنسبة 55.10 % ، مع العلم أن المشاركة العامة في ركب سيدي الشيخ من مجموع العينة تبلغ 59.66 % ...

إن معرفة أولاد سيدي التاج تقترن بزيارة موسم سيدي بوعمامة..كما أنه نتيجة للقرب الجغرافي بين (المدينتين) – عسلة و مغرار – و نتيجة لعلاقات النسب و المصاهرة و التجارة التي تربط بين العرشين ، فإن النسبة تبلغ 85.71 % في علاقة التعارف التي تربط بين أولاد سيدي أحمد المجدوب و أولاد سيدي التاج ، أما في الاتجاه المعاكس و بتغيير قراءتنا للجدول ، تبلغ النسبة 61.46 % في علاقة التعارف التي تربط بين أولاد سيدي التاج و أولاد سيدي أحمد المجدوب ..

إن هذه الفسيفساء الرمزية تتجلى أكثر في اللقاء الذي يحدث بين هذه المجموعات الإجتماعية في الركب و الموسم و الوعدة ..

ننتقل إلى مجال آخر، وهو كيف ينظر مريدي الطرق الصوفية إلى تدخل وزارة الشؤون الدينية في الزوايا والمدارس القرآنية ؟ يُلاحظ أن الذين صرحوا بتدخل الوزارة في الزوايا حصروا ذلك في التوجيه و الإشراف حيث يُعلن عن ذلك 43.01% ، و في **التمويل** بنسبة

31.84 %، و في التكوين بنسبة 11.17% أما من يعلنون عدم تدخل الوزارة في الزوايا، فتبلغ نسبتهم 36% من المجموع الكلي..

و في دراسة لعينة جزئية من هذه العينة الكلية يتضح أن :-

*متغير العرش :- نجد أن أولاد سيدي أحمد المجدوب تشكل نسبتهم 26.82 % من الذين يقرون بتدخل الوزارة في **التمويل** ، يليهم أولاد سيدي التاج بنسبة 21.95 % ، ثم أولاد سيدي الشيخ بنسبة 20.73 %.

*متغير الطريقة الصوفية : نجد مريدي الطريقة الشيخية هم الأسبق في الإقرار بتدخل الوزارة في **التمويل** بنسبة 42.68 % ، يليهم أتباع الطريقة الطيبية بنسبة 19.51 % ، ثم أتباع الطريقة الكرزازية بنسبة 13.4%.

*متغير الأصل الجغرافي : يتفوق المنتمون إلى أصول ريفية من الذين يقرون بهذا التدخل في **التمويل** عن إخوانهم من الأصول الحضرية و تبلغ النسبة على التوالي: 50 % - 35.36 % .

*متغير العمر :الفئات الشبانية أقدر في توضيح رؤيتها مما يجري في تدخل الهيئة الرسمية – وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف – بخصوص **تمويل** الزوايا و المدارس القرآنية ، حيث أن الفئة العمرية من 20-29 سنة تقر بذلك بنسبة 36.58 % مقارنةً بالفئات العمرية الأخرى ..

* متغير المستوى التعليمي الرسمي: يُلاحظ أن توزيع فكرة التدخل كانت متباينة بين المستويات التعليمية ، ففي حين يتصدر الأميون المرتبة الأولى بنسبة 23.17 % ، يليهم من وصلوا إلى التعليم المتوسط

19.51 % ، ثم يليهم ذوي المستوى العالي بنسبة 17.07 % ، ثم المستوى الثانوي بنسبة 15.85%.

*متغير المستوى التعليمي (القرآني) : أما فيما يخص التعليم القرآني ، فنُلاحظ فروقاً طفيفة بين المستويات فيما يخص إقرارهم بتدخل الوزارة في **التمويل** ، فالذين تحصلوا على التعليم الأولي تبلغ نسبتهم 26.82 % ، تليهم نسبة من وصلوا للتعليم المتوسط بنسبة 25.60 % ، ثم التعليم العالي بنسبة 23.17% .

* متغير عرش الأم : قد يبدو الأمر غريباً ، و لكن كباحث اجتماعي ، أرى بأن هذا المتغير له علاقة بوسط المبحوث ، و هو الذي يُوجه رؤيته و أحكامه التصورية ، من ذلك الإقرار بتدخل الهيئات الرسمية في **تمويل** المدارس القرآنية و الزوايا (الجانب الشعائري) ..ما يثبتُ هذا هو أن المنتمين إلى أمهات من أولاد سيدي التاج تبلغ نسبتهم حوالي 25.60 % ، ثم يليهم المنتمون إلى أمهات من أولاد سيدي أحمد المجدوب بنسبة 23.17 % ثم المنتمون إلى أمهات من أولاد سيدي الشيخ بنسبة 21.95 % ، أما من ترجع أمهاتهم إلى أعراش أخرى فتبلغ نسبتهم 17.07% .

*متغير الوضعية تجاه الطريقة : هذا المتغير وثيق الصلة برؤيا المستجوبين لتدخل وزارة الشؤون الدينية في المدارس القرآنية و الزوايا ، حيث أن نسبة التابعين للطريقة يبلغ 32.92 % ، أما المريدين فتبلغ نسبتهم 12.19% فهؤلاء داخل المؤسسة و ليس خارجها لذلك فأحكامهم واقعية ..

*متغير المشاركة في الحضرة : و هذا يشبه المقياس السابق في قياس الآراء باعتبار هؤلاء داخل المؤسسة و ليس خارجها ، فالمشاركون في الحضرة الذين يقرون بالتدخل أكثر من غير المشاركين ، من خلال النسب التالية : - 43.90 % - 23.17. % .

*متغير دور الزوايا : الاعتقاد بالدور الإيجابي للزوايا ، يقترن مع الإقرار بتدخل الشؤون الدينية في الزوايا و المدارس القرآنية بنسبة %.60.97 .

*متغير زيارة أولياء الله الصالحين : لمعرفة مدى التزام المستجوب بزيارة أولياء الله الصالحين و تأثيرها على إقراره بتدخل الوزارة في **تمويل** الزوايا و المدارس القرآنية ، لاحظنا أن 60.97 % من المستجوبين يقرون بذلك ، منهم 21.95 % يزورون سيدي الشيخ ، و 19.51 % يزورون سيدي أحمد المجدوب 13.41% .. يزورون سيدي سليمان بن أبي سماحة..

*متغير تدخل السلطة في المواسم : هذا المتغير هام جداً ، باعتباره يقيس العلاقة بين رؤية المبحوث للتدخل في **التمويل** ، و تدخل السلطة في المواسم (الوعدة و الركب و الموسم) و ذلك بنسبة 59.75% ، بينما من يقرون أن هذا التدخل لا يعدو أن يكون عرفياً فتبلغ نسبتهم 34.14 % ، أما التدخل الرسمي فلا يتعدى 23.17% ..

*متغير الاتصال بالطرق الصوفية : إن الاتصال بالطرق الصوفية يسمح للمستجوب بأن يكون على اطلاع بما يجري من أحداث ، من ذلك

تدخل الوزارة **لتمويل** الزوايا و المدارس القرآنية ، لذلك نجد اهتمام ممن يتصلون بالطريقة القادرية بنسبة 18.29 % و الطيبية بنسبة34 % .

*متغير الطريقة الأكثر انتشاراً : يمكن أن نضم إليها تلك التي لها دور عالمي ، و الأكثر إتباعا ، فنجد أن الطريقتين التجانية و الشيخية هما المهيمنتين ، على الأقل بالنسبة للمستجوبين الذين هم في أغلبهم من أولاد سيدي الشيخ ، تبلغ نسبتهما على التوالي % 39.02 - : و 37.80 % ، وهذا يدل على وضوح الرؤيا ، و إجابتهم عن تدخل قطاع الشؤون الدينية في الزوايا ينبع من هذه النظرة المتكاملة ..

*متغير المشاركة في المواسم : إن التجمعات الثلاث التي أثرناها في البحث منذ بدايته (الوعدة ، الركب ، الموسم) تأخذ حيزاً هاماً في ربطها بين إقرار هؤلاء بتدخل الهيئة الرسمية(الوزارة) في **التمويل** فنجد أن النسبة تبلغ عند المشاركين في الوعدة 54.87 % و لدى المشاركين في الركب 35.36 % و لدى المشاركين في الموسم 15.85%. *

* متغير معرفة الأعراش : نعرف أن معرفة العرش جزء مهم في الاتصال الاجتماعي في الجنوب الغربي بين الأفراد و الجماعات ، وهذا لا نجده في الشمال ، أين يضيق الاتصال الاجتماعي إلى محيط ضيق كالعمل أو الجيرة في العمارة ، لذلك هذا يسهم في انتشار المعلومة و توسع حامليها ، من ذلك نجد أن الذين يقرون بالتدخل و يعرفون شرائح أولاد سيدي أحمد المجدوب تبلغ نسبتهم 50 % ، و الذين يعرفون

شرائح أولاد سيدي الشيخ تبلغ نسبتهم34.14 % ، و الذين يعرفون شرائح أولاد سيدي التاج تبلغ نسبتهم % 34.14 ..

*متغير تقييم الزوايا : إن من قدموا إقرارهم بتدخل الوزارة في **التمويل** خاصة ، لم يفتهم أن يقدموا تقييماً إيجابياً للزوايا بنسبة 34.14 % ، و هي نسبة تفوق من قدموا تقييماً حيادياً أو سلبياً ، و هذا التناغم في النسبة المئوية يؤكد على صدقية هاته المعطيات الإحصائية.

هذه هي الإستناتاجات العامة و الخاصة ، التي خرجت بها من هذه الدراسة الميدانية التي حاولت فيها الاقتراب من موضوع الدراسة و هو الإقتصاد التساهمي و الدور الإجتماعي للإحتفالات الدينية في الجنوب الغربي الجزائري ..

نتائج البحث:

في الجانب النظري حاولت دراسة الزوايا و الطريقة الشيخية بالخصوص من خلال التقديم للفضاء الخاص بالجنوب الغربي ، و قد بينت من خلال أبحاث علماء الإناسة كيف تشكل هذا الفضاء الروحي و عم على منطقة الجنوب الغربي في مزجه بين الهوية و المقدس ،و التي أصبح يُعبر عنها بالظاهرة التضامنية في المجتمع التقليدي ، و التي لها علاقة خاصة بالانتماء المرابطي و الشريف للعائلات النخبوية ، و ثمنتُ دور الأتباع في تدعيم هذا الانتماء من خلال الهبات و النذور و القبض الذي يُقدم خلال هذه المناسبات..

في الجانب الميداني ركزت على الدراسة الوصفية للمدن الثلاث التي تحوي هذا الفضاء الروحي ، دعمتها بمقابلات مع بعض المشايخ الذين

استفدت منهم بمعلومات قيمة عن الزوايا و الأضرحة و دورها في الاقتصاد التضامني و مصادر تمويلها ..

حاولت أيضاً توضيح الدلالة في دراسة العينة، فظهرت العلاقة الترابطية بين الطريقة الصوفية المتبعة و بين الوعدة و الركب و الموسم ، أكثر وضوحاً من خلال جمهورها الذي يصل إلى نسبة 64 % من المريدين .. أما الذين يُقرون بتدخل السلطة في هذه التجمعات فيبلغ 70.70 % من أولاد سيدي الشيخ ، أما أولاد سيدي أحمد المجدوب فتبلغ نسبتهم 63.93 % ، أما الشباب بين سن 20–29 سنة ، فالذين يُقرون بهذا التدخل تصل نسبتهم إلى 69.90 % من هذه الطائفة ، هذا عكس ما يُروج بأن الشباب لا يهتمون بأمر الزوايا و لا بالأثر السياسي لذلك ..

كما أن كثافة زيارة الأولياء الصالحين المرموقين تفترض هبات عينية أو نقدية تُقدم للضريح (القبة) ، و هذا هو المصدر الأساسي للتمويل ، عكس زاوية الهامل ، أو زاوية سيدي بن عمر بطولقة المنتميتين للطريقة الرحمانية ، حيث لهما أملاك معتبرة و مساحات فلاحية هامة و النخيل التي هي وقف على الزاوية..

أما في العينة الجزئية ، فقد وجدت أن المتغيرات التي تخضع للتحليل تلخص رؤيا الفاعلين الاجتماعيين و تصوراتهم حول تدخل وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف في **تمويل** الزوايا ، وهي إعانة رسمية خارجية تُضاف إلى الإعانات الداخلية التي يُقدمها المريدون و الأتباع و الزوار التابعون لهذا الفضاء الروحي للسماحات .

ملحق حول الأشراف ودورهم بين رهان النسب و الهوية

نعني بذلك المجتمع الجزائري ذلك المجتمع المتكامل مجتمع الأمة الشديد التنوع ، أي أن بعضه متجانس نسبياً فهو ينصهر في كله و تبرز فيه سهولة الإجماع و تتوحد الهوية العامة و الخاصة و هو تعددي يتعايش أفراده فيما بينهم..

الإنتاج المرابطي – الطرقي في المغرب الأوسط (الجزائر) ، من حيث قوة رجالاته و تنظيماته وعلمائه ، قد استطاع أن يُحقق الهيمنة الروحية و الاقتصادية ، جاعلاً من النسب الشريف فضلاً و ميزةً ، لكن ليس لأهله هيمنة سياسية مُطلقة ، أو امتيازات خاصة محفوظة ..إذا استثنينا وظائف نقباء الأشراف في بعض الحواضر الجزائرية.

ظهرت قوة الأشراف و المرابطين كنخبة دينية و ثقافية حينما هموا بالاستيلاء على السلطة السياسية و حينما لاحظوا أن العصبيات القوية تصطنع النسب و تؤجر المؤرخين و الفقهاء لإشاعته بين الناس. و باستثناء الأدارسة و السعديين و العلويين الأشراف فإنهم لم يتمكنوا من ذلك على الأقل في الفضاء المغاربي و تفرقت جموعهم و انتشرت في المغرب الأقصى و الأوسط غالبا.

مسألة النسب و بخاصة نسب الأشراف ، يمثل رهاناً في الهوية تعكسه المؤلفات المتوفرة لدينا في هذا الشأن ، و رهاناً سياسياً إذا رجعنا إلى ما أوردته المصادر التاريخية في موضوع اقتباس هذا النسب ، والاندماج فيه ، أو ادعائه بتواطؤ من المؤرخين و أصحاب السير و الفقهاء المتملقين للسلطة .

إن دراسة أثر الأشراف ، و تميز هويتهم ، و متابعة عطاءاتهم ، و إثبات مكانتهم ، يندرج ضمن منهجية أنثربولوجية تُعنى باستظهار خصائص المجموعات الاجتماعية و بخاصة تلك الحاملة للسلطة،هاته السلطة التي من مهامها تحقيق الاتفاق و الوفاق الروحي ، و ما يتبعه من ولاء سياسي و تراتب قيمي ..(أنظر حمداوي و طيبي) *

إن المنظور الصحيح ، يعتني بقداسة النسب ضمن إشكالية بنية المقدس في عمومه من جهة ، و ضمن رؤية أنثربولوجية حديثة من جهة أخرى ، لا تركز على الظاهرة الدينية فقط ، و إنما على ممارسات " الإنسان المتدين " المتشبع باستلهام المصادر المقدسة التي أُنزلت من خلال الوحي (الروح الأمين) ، ورسختها سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، و كذلك فقد سخر هذه المصادر في تأسيس مقدسات عملية كالعبادات و تنظيمية كالمعاملات وتعبيرية كالدعاء و الذكر و القراءات ، و تبركية كالكرامات ورمزية كالأساطير و الخطرات .

ضمن هذا التوجه الأنثروبولوجي ، نسعى إلى فهم معاني قداسة النسب النبوي ، و تحديد إسناد هذا التقديس و رهاناته في التاريخ السياسي و الثقافي للحضارة الإسلامية (أنظرحمداوي).*

النسب من حيث صحته افتراضاً ، شكل في جزيرة العرب قبل الإسلام و بعده ، أمراً ضرورياً للحفاظ على التراتبية القديمة ؛ فالتراتب الاجتماعي أبقى على الوجهاء و الأشراف و السادة و الأعيان ،وكان دليلاً مادياً و رمزياً للتمايز الاجتماعي ، و لإضفاء المشروعية في كل صراع سياسي.

لقد أتم المرابطون وحدة المغرب الثقافية و ذلك بقيادة عبد الله بن ياسين الذي قام بالإصلاح الديني داخل قبائل صنهاجة و نشر المذهب المالكي الذي كان له أثر شعبي حيث ساد فقهاء المالكية بعده في دولة

المرابطين وهم الذين كان لهم اعتبار اجتماعي خاص حتى لدى السلطة السياسية وكان عاملاً هاماً في أسلمة و تعريب هذه المناطق ..
كما كان للمرابطين تأثير على الجانب الإجتماعي و الإقتصادي لا ينكر على المغرب و الأندلس في عمومه..
لنرجع إلى نقطة الانطلاق ، فالصراعات الداخلية للقرابات السلطانية قد أدت إلى التهديم الذاتي ، الذي كانت له آثار وخيمة على كل المستويات في المجتمع ، فسلطة الدولة لا يمكن لها الاعتماد على القوى القبلية التابعة لها التي اختفت، و لا يمكن لها من جهة أخرى تجنيد القبائل الخارجة عن سلطتها..
نلاحظ أن القطيعة الاجتماعية بين القاعدة القبلية للمجتمع و الدولة تتوسع ، لأن هذه الأخيرة ترجع إلى بنية قرابية خاصة ، غير متصلة بالروابط الاجتماعية المبدئية : فابن

*** أنظر أطروحتي – دكتوراة الدولة في علم الإجتماع : " الولاية و الرباط بين شرف الأنساب و كرامة المناقب" تحت إشراف / أستاذ التعليم العالي : د. عبدالغني مغربي – جوان 2009 م .**

خلدون لم يذكر أي حالة من الزواج المختلط بين أعضاء سلطانية مؤسسة و أعضاء الزعامة القبلية .. إضافة لذلك، فالضرائب التي يدفعها الأشخاص جراء وصول زعمائهم للسلطة، لا تسمح لهم بالعيش على نفس النمط الذي أدركوه حينما غزت قبائلهم السلطة.
في القرن 18 م ، لم تتمكن البرجوازيات من الاندماج في المجتمع

المحلي وإنما ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالسلطة السياسية ، ففي أحسن الحالات تحصل على امتيازات فيحصل لها حراك تصاعدي طارئ و سريع لم تكن تحلم به لكن في أسوء الحالات تُصادر أملاكها فيحدث لها حراك تنازلي مفاجئ كما لا يفوتنا أن نذكر بأن الصراعات التي تحدث بينها تجعلها تابعة و قليلة العدد .

-2- نماذج من الحواضر الجزائرية زواياها و شيوخها :

تلمسان ، تشتهر بالشيخ أبو مدين شعيب الحسين الأندلسي (520 هـ ، 1126 م) أخذ عن ابن حرزهم و الدقاق و أبو عزة وأخيراً عن الشيخ عبدالقادر الجيلاني ببغداد ، قطن بجاية ، و هذه الشهرة أخذت في التوسع مما أزعج أبو يوسف يعقوب المنصور الذي طلب من الوالي نفيه إلى مراكش بالمغرب ؛ و توفي بتلمسان حيث دُفن بالعباد.

في وهران ، كان الأشراف من الفئات المتميزة في المجتمع و لهم أوقافهم الخاصة بهم و هي الفئات التي تتعاطف مع العثمانيين و قد ظهر ادعاء الشرف في بعض الأحيان في المدن و الأرياف لتحقيق بعض المنافع العاجلة ولبلوغ الحظوة لدى بعض الحكام العثمانيين.

لكن لا يجوز لنقيب الأشراف أن يتدخل في شؤون الزاوية ذلك أن وضعه بالنسبة لها هو وضع أعيان الأشراف الذين عليهم أن يجتمعوا مع الوكيل مرة في السنة في الزاوية للنظر في إدارة الوكيل و أحوال الوقف ، وهؤلاء كانوا يمثلون المجلس الذي له البت في كل أمور الزاوية و حاجاتها .

و قد حظيت مكانة الطُّلبة باهتمام الاحتلال و التعليم التقليدي أيضاً وذلك لقرب وهران من المغرب ونهاية مقاومة الأمير عبد القادر..وقد أشار ماك ماهون في تقريره السنوي إلى ما يلي :

"التعليم غير مراقب الأمر يقتصر على استدعاء معلمي المدارس و أخذ معلومات عن إمكانياتهم و أخلاقهم و إعطاء شهادة مدرس Instituteurكما يتطلب منهم تحديد عدد التلاميذ الذين يدرسونهم و تنفيذ التوصيات المبرمة بينهم و بين أولياء التلاميذ."

و المراقبة طالت الإخوانيات التي كانت منتشرة حيث أن الأشخاص المنتمين للطرق الصوفية يجولون سنوياً و يجمعون الصدقات وهذا ما جعل الحاكم العام يشدّد لألاَّ تستعمل من طرف المنتفضين والمتمردين لذلك فتحسين التعليم يرتبط بإقصاء غير المرغوب فيهم وهؤلاء أيضاً يستعملون التعليم لأغراض غير معلنة ..

أما الزوايا في قسنطينة فكثيرة منها : زاوية سيدي الكتاني و سيدي امسيد و سيدي عفان و سيدي راشد، و سيدي التلمساني ؛ كما أن للعائلات الكبيرة زواياها مثل زاوية أولاد الفكون و زاوية بن نعمون وزاوية أولاد جلال وزوايا خاصة بالأتراك و الكراغلة (زاوية رضوان خوجة) و في نواحي قسنطينة نذكر زاوية بني مقران و زاوية خنقة سيدي ناجي و زاوية معمرة ؛ و يذكر أبو القاسم سعد الله أن قسنطينة من أكثر المدن عناية بالمؤسسات العلمية و ذلك لاستقرارها السياسي و لقربها نسبياً من تونس وهي باب المغرب العربي إلى المشرق.

و في بجاية ، فإن الزوايا و المساجد كانت تتكفل بمهمة التعليم عن طريق خبرة الشيوخ في النحو والشريعة و تفسير القرآن أغلبية الطلبة الذين أنهوا دراستهم يعودون إلى قراهم ليصبحوا أئمة و أساتذة و قضاة و الأكثر جرأة و ثراء يذهبون إلى العواصم الكبرى لتحصيل العلم و الثروة و قد استحوذت بجاية على أغلبهم نظراً لقربها .

أما أهم زوايا مدينة الجزائر :زاوية القاضي بباب عزون ، زاوية الكشاش بباب الجزيرة (الدزيرة بالتعبير المحلي) وزاوية الجامع الكبير، و زاوية الشرفة بنهج بروس ، و زاوية الأندلس بنهج السمن ، و زاوية كتشاوة ، و زاوية سوق الجمعة بنهج سوق الجمعة .

و من المدارس كانت مدرسة سيدي رمضان (تدرس الفرائض – علم الفلك– الهندسة) مع ملاحظة أن المدرسة الابتدائية تُدعى كُـتَّاب و العليا تسمى مدرسة ، فلقد أحصي 80 كُتَّاب و 12 مدرسة أثناء دخول فرنسا إلى المدينة .

المدارس العليا كانت من نصيب أبناء الطبقات المحظوظة وأهمها : مدرسة الجامع الكبير التي كان يُدرس بها 18 أستاذاً و 8 قُرَّاء ، وعدد آخر من العلماء يشغلون وظائف متنوعة و بوجود المكتبة النظمية التي تحوي عدداً كبيراً من الكتب و المخطوطات ظهر نشاط علمي هام ..

في عنابة ، لقد كانت هجرة البدو الرحل الذين جاؤوا من الصحراء منذ القرن 16 م و الذين تعود أصول بعضهم إلى الساقية الحمراء (أي الأشراف) أثرٌ على انتشار الطرق الصوفية لدى حضر عنابة ، وما الأضرحة الكثيرة والمقامات المُقامة هنا و هناك و القبب إلا دليلاً على

الاعتبار الذي حظيت به الطرقية في هذه الفترة و ما يليها ومن هؤلاء الأتقياء :"سيدي احميدة ، سيدي بوحديد ، سيدي نور ، سيدي إبراهيم (بني مرداس) ،سيدي شاكر ذي الأصل التركي ، و هو عالم ورع متمكن من العلوم الدينية يتحدث بلهجة و لغة موسومة بالحكمة وكذا سيدي منصور ..كل هؤلاء كانوا يتمتعون بما يتمتع به نظراءهم في الجزائر من الخوارق و الكرامات و قد تأثر السكان بهذه الاعتقادات و كانت جزءاً من تفكيرهم.

في الأغواط ، أولاد سيدي الحاج عيسى يتمركزون في القطاع الجنوبي ؛ رئيس هؤلاء أتى من تلمسان منذ نهاية القرن 17 ، أمه من أولاد سيدي الشيخ ، مثله مثل رئيس قصر تاجموت سيدي عطا الله بن ذهيبة ؛ كان يشتهر بالحكمة و التقوى و هذا ما جلب له الاعتبار و في العرف يُعتبر صاحب خوارق و كرامات فدعاؤه على أهل قصر الحيران الذين كانوا يهاجمون الأغواط عرضهم لرياح رملية قوية..

قصر عين ماضي: – أهم قصر و يحتوي على مصادر المياه الضرورية و الفائضة و الصور الذي يحيط به شيد بطريقة جيدة و معالمه العمرانية تستجيب لأغلب مزايا القصور المهمة..أُخذ هذا الاسم من حكيم يمتاز بالرأي القاطع (ماضي).

تطور هذا القصر منذ 1750 م بفعل التجانية و تاريخه يرتبط بهذه الزاوية وعدد سكانه بلغ 1000 ساكن أثناء الاحتلال طبعاً .أدى هذا القصر دوره الديني و ابتعد عن المناوشات التي تسم القصور الأخرى ومنذ القرن 16 م اشتهر بأنه مكان لتجمع الأشراف الذين أتوا من

مختلف مناطق المغرب و بوجود الطريقة فإن سلطته الروحية توسعت و سمحت قوته المالية بأن يستقل عن البدو الذين يُجاورون جبل عمور و الأرباع وأولاد سيدي الشيخ أو حتى اتجاه الأغواط .

إذن أصبح للقصر شهرة تأسيس الطريقة التجانية في 1781 م فقد ولد منشئ الزاوية سي أحمد التجاني في عين ماضي سنة 1737 م و ينتمي لعائلة من أشراف المغرب أتت قبل قرن من الزمان و في 1752م كان عمره 15 سنة بوفاة والده سي محمد المختار التجاني ترك القصر ليسافر لطلب العلم فاتجه إلى فاس ثم إلى المدينة المنورة و القاهرة و برجوعه إلى الجزائر بعد مشقة و مواظبة تتعدى 23 سنة مكث لفترة ما في بوسمغون والتي تبعدعن المركز البيض بحوالي 120 كلم .و في 1781 م جاءه هاتف لتأسيس طريقته و إخوانيته الجديدة التجانية و ظهر له النبي صلى الله عليه و سلم عياناً و طلب منه التخلي عن الطرق الصوفية السابقة و تعليم الطريقة الجديدة . في تنقلاته كان مرتبطاً بعدة طرق صوفية : القادرية و الرحمانية و الطيبية ..وهذا ما جعله يقترب من الشيوخ الأكثر اطلاعاً و تضلعاً و أن يتعرف على نقاط الضعف في كل طريقة.

الطريقة التي أحدثها تتميز بطابعها الانتقائي (الليبرالي) بالإضافة إلى الذكر الذي يكرر ثلاث مرات يومياً ، إنها تؤكد على النبل و التسامح لكنها تمنع الانتساب إلى الطرق الأخرى أو الخروج على الطريقة و توصي بالطاعة لكل سلطة زمنية متبناة و منتظمة. هذه التعاليم لقيت انتشاراً واسعاً ومن ثمّ نظم إخوانية كبيرة و جعل مركزها

عين ماضي و انتشار هذا المذهب يظهر من خلال كثرة المريدين في الجنوب الجزائري و في الصحراء و لدى الطوارق ومن خلالهم في المناطق السودانية و النيجيرية و السنغالية ثم انتقلت إلى تونس وليبيا ومصر وسوريا. *

يبلغ عدد مريدي الطريقة حالياً حوالي 350 مليون ، و حسب الإحصائيات يزداد العدد إلى 500 مليون إذا ضم لهم الأتباع.

Hertz .G : L'Algérie Nomade et Ksourienne P :- 145 et suites *

معالم الاقتصاد التضامني- الاجتماعي

أسسه ونتائجه

دراسة عن الزاوية العلوية